

«يا دنيا راحوا الغوالي» حالة إنسانية عالية «والله يحميكي يا حلب» لم تر النور

| سوسن صيداوي

من زمن العمالقة زمن الأصالة زمن الأبيض والأسود، زمن التأسيس والسعي الجاد لاعتناق رسالة، زمن حراس جودة الفن وعراقته، لأشخاص يتهادون بقدمس الموسيقى باعتبارها في معتقدهم روح الله في البشرية. فالأمور بالنسبة لهم لم تكن يوماً عبثية، والمصادفات لا تأتي هكذا، فكل شيء في هذا الوجود له سببه الدافع لأمور أساسية في الحياة، ربما في داخلنا نحن مدركون لها أو بالمعنى الأتق نحن مؤمنون بها، أو ربما كنا من مجموع الأشخاص الذين يدركون غاية تلك الأسباب ولكن بعد حدوث نتائجها بزمن، لنبقى حول من هم مؤمنون بأقدارهم، ومؤمنون برسالتهم في هذا الوجود، من اختيروا كي يكونوا عمالقة في زمن جميل، كي يكونوا صناع الأصالة الإرث الحقيقي الذي لا يمكن لأيام متراكمة بغيار زمانيه المتسارع أن تطفئ؛ وهجها مهما حصل. هو اختار أن يكون منهم وسعى بكل قوته وجهده متمسكا بشعلة إيمانه أن يكون وأصبح، الملحن الموسيقار سهيل عرفة، حارس الأغنية السورية. منذ طفولته تبارك بترانيل وأنشيد المبتهلين في المسجد الأموي، ولطالما قال إن الموسيقا نبيلة لأنها من روح الله، ورغم كل الظروف التي حاولت صد وإعاقة عشقه للموسيقا كان يخلتس سماع الراديو بغياب والده الذي كان سببا في تحطيم عوده عدة مرات، وهذا أمر طبيعي في ظل عائلة من طبقة محافظة. لكن الأقدار تشاء أن تصبح مهنته ومكسب لقمة عيشه مهنة تصلح المذبح، لتكون بعدها المسيرة التي مهدت له كي يصبح مغنياً لفترة قصيرة ليكون بعدها من أهم ملحني الأغنية السورية ومطفيئها نحو العربية أولا ومن ثم العالمية عبر أغان عاطفية ووطنية وأغان للأطفال.

محطات حياتية

في عام ١٩٣٤ ولد سهيل عرفة في حي الشاغور الدمشقي وسط عائلة متوسطة الحال، في ذلك الوقت كان المذايح في بداية انتشاره، كان صبيا صغيراً ومنتفسه الوحيد الذهاب برفقة أبيه إلى «المولد» والاحتفالات الدينية. وفي تلك الأوقات كان من الضروري أن يتعلم الطفل مهنة في الصنف، وأن يلحق شيخ كار لإحدى المهن التي كانت دارجة، ومن حسن حظ الطفل سهيل. ورغم أنهم من عائلة جد محافظة، إلا أن الطرق كانت كلها مؤدية لتحقيق حلمه والدياسة في اختيار مهنة تصلح الراديو في شارع السنجقار في دمشق، لأنها كانت قريبة إلى هوائيه، وتوالت الأيام حتى أصبح يتردد على إذاعة دمشق آنذاك مع مهندس يدعى خالد الغزة. فبعد أن قام بإصلاح مذياع عبد العزيز الخياط، الذي قدمه في سهرة كعازف للعود ومغن، وطبعاً نال إعجاب الحاضرين أمثال نجيب السراج ورفيق شكري وعدنان قريش ومحمد عبد الكريم، بدأ المشوار بأغنية «نورا نورا» لفريد الأطرش وغناها في الإذاعة من خلال مشاركته في برنامج الوان، ثم قدم أول لحن للفنان فهد بلان في أغنية «ظل الأحرار». استمر الموسيقار في إصراره رغم مقاطعة إخوته له، ليؤلف عدة أحنان في الإذاعة. في بداياته كمنف في الإذاعة تعرف إلى مطربين ومطربات لبنانيين مثل نجاح سلام التي سمعت أحنائه وعنتها كأغنية (ورماتة جحبو يا قلبي)، وأثناء زيارة رئيس دائرة الموسيقى الإذاعة اللبنانية لدمشق الملحن حليم الرومي، استمع إلى أحنائه فأعجبته لفصيح له رثناً في إذاعة لبنان، بعدها تعرف إلى الفنان نصري شمس الدين ومحمد زين والمطربة هيام ويونس وليلى طمر وسهير يزيد ورموان محفوظ وعدد كبير من المطربين الذين شاركوا عرفة في محطات من مسيرته الفنية، ومن خلال حليم الرومي اجتمع سهيل مع صباح وتعاون معها في أغنية «من قلب البيروت»، التي كانت بطاقة عبور إلى تعاون آخر كان سببا في شهرة واسعة في الأساطير العربية عبر أغنية «ع البساطة» في فيلم «أهلا بلحب» (١٩٦٨). ومن بعدها توالت النجاحات من خلال سلسلة من الأحنان لفنانين سوريين وعرب مثل: أشهر الفودو الحلبية «يا مال الشام، لصباح فخري ورائعة أبو خليل القباني، «يا طيرة طيري يا حمامة» التي لحنها لنشادية، «وسكاي يا دموع العين» لشريفة فاضل و«يا غزالاً عني أيهوك، لنجاح الصغيرة. لكن حضور الشام في قلب الراحل كان قويا وله جل عمقه وأثره البالغ والحاضر في الأغاني الوطنية والدياسة كانت مع أغنية«من قاسيون أطل يا وطني، لدلال الشامل. المحطات والعطاءات كانت تكرم صاحبها حتى وصلت إلى أكثر من ألف وخمسةمئة عمل تنوعت بين الأعمال الوطنية والعاطفية والشعبية والطربية، وأغانى الطويلة، والموسيقا التصويرية سواء من أفلام سينمائية أم مسلسلات سورية كان لها جانب كبير من عطاءات سهيل عرفة الحاضر بين العمالقة، والشاهد على زمن الفن الجميل الأصل فعاطفته للموسيقا وعبرته عليها مكنته من وضعها في كل المجالات سواء أكان مؤسساً أم متعاوناً مع كل من هو حاضر، مسيرته الحافلة، منذ نهاية الخمسينيات، والتي يشهد عليها ما يبقى في الذكري وفي القلب من أغان لا يمكن النسيان منها: (يا دنيا) و(بلدي الشام) لوديع الصافي والأغنية الأخيرة شاركته فيها فائق حناوي و(يامال الشام) و(ميلي محفوظ، و(صباح الخير يا وطناً) لأمل عرفة وفهد يكن. عطاءات مكنته بجداره من التعيين في وزارة الإعلام السورية عام ١٩٧٤ بمرسوم جمهوري أصدره الرئيس حافظ الأسد، وأن يكون عضواً في جمعية الملحنين والمؤلفين في باريس وفي عدد من الهيئات والجمعيات الفنية، بالإضافة لحصوله على وسام الاستحقاق من الرئيس بشار الأسد أواخر عام ٢٠٠٧.

إضافة إلى العديد من الجوائز والتقديرية والشهادات.

وديع الصافي

لحن عرفة لوديع الصافي الكثير من الأغاني الشهيرة والمحبية وأهم هذه الأغاني: يا دنيا، لا ترحلوا، يا زمان، مشتاق زور الحى.. وكانت آخر أغنية لحنها له بعنوان: (حنوتة يا بلادي) من كلماته وأحنائه. اعتبر عرفة أن صوت الفنان الكبير وديع الصافي كان حلماً لأي ملحن يضمن له دخول التاريخ، وهذا ما حصل معه عندما غنى له الصافي «يا دنيا» وغيرها، مشيراً إلى أن الأغاني كتبت أصلاً لسعدون الجابر إلا أن الصافي عندما سمعها أصر على غنائها، مضيفاً إن وديع كان حساساً وراقياً في التعامل مع اللحن، التعامل مع الكبار يريح كثيراً.

مع الشحروزة

عبر عرفة عن فخره بتلحن مجموعة من أجمل أغنيات صباح مثل «عالبساطة» و«أخذ قلبي سكارسة»، و«يا رب تشتي عرسان» وغيرها الكثير، معتبراً أن صباح هي أميرة الأغنية بكل ألوانها، كما قال: إن أغنية «ياطيرة طيري ياحمامة» التي غنتها له شادية في أحد أفلامها كان كتبها لصباح قبل أن يلتقيها كما أن أغنية «عالبساطة» لم يكن الفنان الراحل فريد شوقي الذي شارك صباح بطولة الفيلم الذي غنت فيه الأغنية راضياً عنها، فتم تسجيلها من دون علمه وأطلقت من دمشق ليتصل به فريد شوقي حينها ويقول له صنعت من «البساطة» شيئاً مهماً جداً، متابعا أن صباح أوال أميرة

سهيل عرفة في آخر حواراته مع «الوطن»

«يا دنيا راحوا الغوالي» حالة إنسانية عالية

«والله يحميكي يا حلب» لم تر النور



الراحل سهيل عرفة مع الزميلة سوسن صيداوي

من التراتيل والابتهالات إلى الموسيقى نبل من روح الله

السورية، لماذا لا أعرف السبب، وأنا استغرب هل من أحد لا يحب هويته؟ فالأغنية والموسيقا هي هويتنا، فمثلا اليوم الموسيقا التصويرية ذهبت هويتنا، لأن الكل يقومون بأخذ مقاطع موسيقية من عدة ثقافات ويقومون بدمجها، وفي الوقت الحالي لا يوجد من يدعم الموسيقا التصويرية إلا أقلية والأقلية لا تبقى، فما أقصده على وجه التحديد أن الأغنية السورية اليوم أصيبت بفيروس يقوم بتشويهها وتشويه كل ما يرتبط بها من كلام أو لحن، فهناك اندثار لفظي منتشر في أغنيتنا بشكل مرعب فعلى سهيل المثال وكى أوضح، هناك العديد من الأغاني التي كلامها مثل هذا الكلام «يا ويل علي يا وليي...مثل الورق طيرتيني»، ما هذا الكلام؟هذا الكلام يجب ألا يخرج من فم رجل لديه قسمة أو مبدأ وهو عليه واجب الدفاع عن وطنه وتحمل واجب القضية الفلسطينية، وكيف يقول كلاماً كهذا؟وكم من فرق بينه وبين الجندي السوري الذي يعاني برد الشتاء القارس أو حر الصيف القاسي والشوق الكبير إلى أهله ورغم كل ما يواجه من تحديات تراه واقفا شامخا معانقا بندقيته كي يحرر سورية ووطنه.

- لا يمكن أن يكون المرء سفيراً للأغنية إلا إذا كانت أغانيه مؤثرة في الجمهور إلى أبعد مدى؟

هذا صحيح... فالأغنية القريبة من الجمهور هي التي تبقى مهما طال الزمن وهي التي تؤثر فيه وعليه في الوقت ذاته، وهنا أريد أن أذكر أن الرئيس حافظ الأسد كان يحترم الأغنية السورية جداً ويقدرها ويعتق بها معتبراً إياها سلاحاً مؤثراً في الناس، وكذلك الحال بالنسبة إلى الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يهتم أيضاً بالأغنية ويرأها أقوى من خطابه الذي كان يعمل عليه بالساعات، واليوم للأسف الشديد ما تعانته الأغنية السورية هو مؤامرة، ويؤسفني أن أقول: إنها مؤامرة.

- في زمكتم زمن العمالقة كنتم معطاءين جداً ولم تفكروا بالمقابل المادي، كان همكم ومسعاكم هو إثبات الذات وتحدي الصعاب لتحقيق الحلم...هل يمكننا القول إن أحد أسباب تراجع الأغنية السورية هو السعي وراء الربح المادي؟

...لا ليس السعي وراء الأموال والمادة فقط، بل الخطأ يقع على أصحاب القرار من مديري المؤسسات الإعلامية، وأيضاً على الفنان نفسه الذي يقوم باختيارات تعبر عن هشاشة ثقافته الموسيقية، وطبعاً الماضي يطوى وأرشيف الأغاني يمكنني القول: إن فوقه الغبار من قلة الاستعمال، وللأسف حتى لو تذكرنا ووضع أغنية ليس هناك من تعريف لمناسبتها أو من ألفها ولحنها وهذا كله يؤثر في ثقافة الأجيال القادمة الموسيقية، أقول هذا من عتبي وألمي، فتلأسف حراس الأغنية السورية كلهم ذميو وكلهم كانوا يدافعون عن الأغنية السورية وكما نحلل رايتها، واليوم أنا آخر حراس الأغنية السورية ولا أستطيع وحدي أن أدافع عن هذا الوطن من تحدياته وتنشيطه وانحذارات أخلاقية فنية ولغوية.

- اليوم هناك العديد من التجارب بإعادة توزيع الأغاني الطربية والتراثية القديمة بطريقة حديثة مع إدخال آلات موسيقية إليها ولو كانت غريبة وذلك من أجل استقطاب الشبان... هل هذا أمر خاطئ؟

لا.. بل هذا سؤال مهم، يمكنني هنا أن أذكر سيد درويش لأنه كان دائماً يسعى إلى تطوير الأغنية وإدخال الآلات الغربية وتأثر به عبد الوهاب كثيراً وتعرض الأخير للهجوم والانتقاد من الأشخاص الوصوليين، وأيضاً يبلغ حمدي نخل إلى التراث وعمل «اسمران اللون» وعنتها شادية وكلهم عمل أغنية «قولوا لعين الشمس ما تماشيا» ما أظهر شادية بطريقة جديدة واستمر الهجوم والانتقاد، وبالنسبة في بوقتها كنت في مودع بين سورية ولبنان ومن خلاله كنت قادراً أن أقدم أغاني

أ

أثناء جلسات التأليف والتلحن واليوم لا أرى أو أمس هذا الهاجس وهذا الشغف، مرة طلع معي كلام لأغنية فهانقت عمر حلبي وقلت له اليوم تأتي وبالفلح جاء وبقينا حتى أذان الظهر وكنا نظننا أنه أذان الفجر، إذ سرقنا الوقت ولم نشعر به، وهذه هي الطريقة التي كنا نعمل بها كموسيقيين ومطربين، وكلهم كانوا يأتون إلى الإذاعة كي تسجل الأغاني، وكان الأمر صعباً جداً، فالخطأ غير مسموح به، وعند حصوله كنا نعيد الأغنية من بدايتها، حالتنا كانت حالة من الاستفгар الحقيقي وليس هذا فقط بل كان الكل ينتظر في الاستديو كي يسمع أداءه، في حين اليوم الحال اختلف والكل ماض نحو الاستسهال واللامبالاة وهذا من الأسباب والوجع الذي تعانته الأغنية بالعموم.

- الأغاني الشعبية مادامت ناتجة عن البساطة وهمومها فهي لا تموت مهما تبدلت الظروف والأحوال؟ هذا ما اعتبره من عجائب الزمن، فأغنية «ع البساطة» لصباح لما ظهرت منعت من الإذاعة وبُنت على التلفزيون السوري رغم أن المبني واحد، وفي وقتها لم يجب الكلام مدير إذاعة دمشق رغم أن الجمهور أحب الأغنية، وحتى الرئيس حافظ الأسد كان اتصل بصباح وهنأها على الأغنية، رغم أنها كانت ممنوعة من البث في إذاعة دمشق كما ذكرت، إلا أنه أمر بيقتها، إذاً تحكمتا المزاجية والأملة كثيرة عن الأغنية الشعبية التي لا تموت، ويمكنني أن استعشر بالمناسبة مثلا عن سورية، فانا لم أقدم لها إلا أغنية أو اثنتين، ولكن للشام تقدم الكثير من الأغاني، لأن بلاد الشام هي مهبط الديانات والشام هي كل الحياة وهي يلد الفدى وعنواني، وإلى اليوم كل هذه الأغاني ما زالت مطروقة وتردد إلى يومنا هذا.

- كيف ترى الشحروزة صباح؟

صباح هي مؤسسة بحد ذاتها وهي تعمل الذي تريده، فهي تتفاوض مع الذي تريده وتتكلم بنفسها سواء مع المنتج أو الملحن ويطل الفيلم ولحنها لا تتاوض ماديا.

- شهادتك في صباح فخري

كان زميلاً في خدمة العلم رغم أنه أكبر مني سنا، وفي حياتي كلها لم أسمعها هاجم أحداً أو أساء إلى أحد، أخلاقه عالية إضافة إلى صوته وقامته ونجاحاته والأوسمة، وما حصل عليه من تقديرات وجوائز في الغناء والأداء، كلها مع شخص بكل ما قدمه في حياته الفنية، ألفنها كلها لن تموت أبداً.

- شهادتك في رفيق سبيعي

رفيق سبيعي شخصية شعبية مرموقة تمثل شعب الحارة والقضايا الأصليل، أرى أبا صباح في أعظم أدواره في مسلسل أيام شامية لأنها بالفعل لا تختلف أبداً عن أبو

صباح رفيق سبيعي، وعندما علمت معه كنت درست التراث الدمشقي لأنني أردت أن اجعله يغني كما يحكي تماما، وأكبر مثال عملت له نحو ٢٢ أغنية أسس بها عمله المسرحي، وأتذكر أننا كنا عملنا أغنية أنا وعيسى أيوب، كان كتبها شادي بن عيسى، وقلت له إذا لم يجيبها وديع الصافي يجب أن يغنيها علم مثل وديع ويجب أن يكون رفيق سبيعي، وبالفلح كانت الأغنية من نصيب أبي صباح، لكنني وضعت لوديع الصافي كلاماً آخر على لحن مشابه وكنت أنا من كتبها لأنها من الحاني وهي أغنية «حنوتة يا بلادي.. علي عرفت الفدى وأم الفدى.. وشو ركعنا وسليتنا.. لحنتي ترضي علينا.. حنوتة يا بلادي»، هذه الأغنية هي آخر أغنية من الحاني غنأها وديع الصافي.

- ماذا عن فهد بلان؟

صوت خاص وسفير فوق العادة لأي ملحن، كان مجتهداً تماماً، وأكبر مثال عمله له نحو ٢٢ أغنية أسس بها عمله المتميز عن غيره، وعبد الفتاح سكر هو صاحب الفضل بأن يكون لبلان تميز خاص بالأغنية، ورغم أنني وفهد بلان كنا أصدقاء إلا أنني لم أرغب في الالتزام مع أحد، فانا أحب أن أنتقل كالعصفور.

- أمل عرفة؟

فنانة شاملة... ولو ما كانت ابنتي لكتبت سمعت اسمها بكلمة أستاذة.

- أولادك وأحفادك ماذا تقول لهم؟ لا أقول لهم، لأنني أرى بعيون فدوى وسمر وأمل وعادل وجه وعيون زوجتي رحما ش.

- لا تزعلي يا شام هذه الأغنية التي هي من أحنائك وغناها أبو صباح ماذا تعني لك؟

كلابها هزني جداً وأبكاني والشاعر سامر غزال احضر لنا كلاما جيدا لأغنية الحارة كله عاطفة وحب، وهناك أغنية جديدة لأمل وأغنية عن أحداث حلب وطلع ببالي مذهب وأخبرت الشاعر سامر غزال عنه، والمطلع يقول «الله يحميكي يا حلب.. ويزيد قوة يا حلب.. علي اعاديكي انتي الفدى.. وكل الفدى وأم الفدى.. والنصر على يلي اعتدى جاي غضب»، وسيفنيها أبو صباح على التحديد.

أنت آخر حارس للأغنية السورية...كلمة أخيرة لحراس

الأغنية الحالية...

إنهم ليسوا حراساً بل هم أجراس الأغنية، لو كانوا حراساً لكانوا اقتدوا بالزمن الجميل وللأسف الشديد ليس لديهم أي أصالة في فنهم، فالفن يحترم والموسيقا هي من روح الله، وعلى الرغم من ذلك علينا التمسك بالأمل مادام هناك من هو مجتهد ولديه مسؤولية وال التزام تجاه فنه وموسيقا ستبقى الأغنية بخير.